وسطها صخرة كبيرة».

قال نصري إنّه أطلق النار على شجرة، كي يتسلّى، فنهره المدربُ الإسرائيلي، وقال له إنّ حظه كبير لأنّه أخطأها، لأنّهم في إسرائيل يحبُّون الشجر كثيرًا ويمنعون قطعه أو الاعتداء عليه.

«يعتنون بأشجارنا»، قلتُ.

«لو تراها، المنطقة كلها مزروعة بالصنوبر، يا عيني ما أحلى الصنوبر، كأنّك في لبنان».

«صنوبر»! «ولكنّها منطقة زيتون».

«اليهود لا يحبُّون الزيتون، إما صنوبر أو نخيل».

«قتلوا الأشجار»، قلت.

«لا، اقتلعوها، وزرعوا مكانها».

كان نصري يُدخل بعضَ الكلمات العبريّة التي لم أفهمها، كي يثبت لي صحة كلامه، ويقول إنّه كان أبله لأنّه صدق الحرب، فالحرب لا معنى لها. وقال إنه سيسافر قريبًا إلى أميركا من أجل إكمال دراسته في هندسة الكومبيوتر.

والغريب يا سيدي، أنّني استمعت إلى هذا الفتى الذي قفز بمظلته فوق الجليل، دون أي حقد. كنت أعتقد أني حين سألتقي بواحد من هؤلاء، لن أتمالك نفسي. لكنّي، في ذلك اليوم، كنت أشرب العرق وأضحك لنكاتهم، وأرى تلك الفتاة وهي تحاول الإمساك بيد نصري، ونصري يسحب يده من يدها، وجورج يراقبني وينظر إلى ساعته، ويتأفف لأنّ جوزف تأخر.

«هيدا جوزف تبعك فنّاص»، قال أحدهم. وبدأ يروي عن جبن جوزف، خاصة في معركة «الهوليداي إن»، حين رمى بنفسه من الطابق الرابع هاربًا، وركض على رجله المكسورة.

«حشاش وعكروت»، قال آخر.

«ليك ملاّ آخرة، صار ريّس قال، لَمن ما بقى في ريّاس»، قال نصري.

أحسستُ رغبةً في الدفاع عن الريّس جوزف، فكّرت أنّهم يستغيبونه، فلو كان هنا لتريّسَ عليهم، أما جُبنه فلم أصدقه، خاصة بعد أن روى لي صديقي الكاتب عن وحشيته الخاصة، خلال مذبحة شاتيلا. لكنّي فضلتُ السكوت. كنت في وضعية غريبة، كيف أصفها لك، لا واللّه، أنا لا أقول إنّه لم تحصل جرائم، نحن أيضًا قَتَلنا ودَمَّرنا، ولكنْ في تلك اللحظة شعرت بتفاهة الجريمة، فالجريمة لا معنى لها، ونحن مجرَّد أدواتها. نحن لا شيء، نحارب ونقتل ونموت ولا شيء، مجرَّد وقود آلة ضخمة اسمها الحرب. وقلت لا يمكن، خاصة مع نصري هذا، شعرت أنّني أقف أمام مرآة، كأنّه يشبهني! لو كنت قادرًا على الكلام لتكلّمتُ أكثر منه، لكنّ حجرًا كبيرًا أغلق فمي. ثم بدأ الحجر يتفتَّت على إيقاع يد الفتاة التي تمتد إلى يد نصري وتنحسر عنها. كان يشرب العرق بطريقة خاصة، يمصّ الكأس مصًّا، يترك قليلاً من سائل العرق الأبيض على شفته التي يلحسها بلسانه. كان فتى أبيض البشرة، ممتلئ الكتفين، أعتقد أنّه يمارس رياضة كمال الأجسام، لأنّ صدره كان يرتجف بالعضلات المختبئة تحت قميصه الأزرق، وكان يعود بشكل دائم إلى حكاية دورة المظليين التي شارك فيها، وكيف شعر أنّه يطير في إسرائيل.

قال «إسرائيل»، ونظر إليّ كمن يعتذر، «عفوًا، عفوًا، فلسطين، روح انبسط». قال إنّه طار فوق فلسطين، ونظر إليّ بعينين مليئتين سخريةً وتواطؤًا.

بعد أن أنهيتُ كأسي الثالثة، سألتهم عن الحرب، «ماذا تشعرون الآن»؟

«لا نشعر بشيء»، قال نصري.

«وأنت»، سألني؟

«أشعر بالحزن»، قلت.

قال نصري إنّه ليس نادمًا أو حزينًا على أصدقائه الذين ماتوا في الحرب. «فالحياة هكذا»، قال، وهزّ كتفيه لامباليًا.

«ولكنّكم انهزمتم»، قلت.

«وأنتم انهزمتم»، قال.

«ليس بالضبط»، قلت.

«أخبِرْني عن حياتكم في المخيمات، ثم حدِّثْني عن النصر والهزيمة».

«سأخبرك عن موتي»، قلت، «أنتم قتلتموني».

«نحن قتلناك، وأنت قتلتنا، هذا ما أحاول شرحه لك»، قال نصري، «نحن انهزمنا وأنتم انهزمتم».

«كلنا انهزمنا»، قال مارو ورفع كأسه، «كعبو أبيض يا شباب، كاس الهزيمة!».

رفع الشباب كؤوسهم، وشربوها حتى آخر قطرة.

«علينا أن نذهب، تشرّفنا بمعرفتك يا دكتور، لا تزعل، للحديث صلة». وطلب نصري الحساب، ودفع، وذهبوا كلهم.

كنت أريد أن أقول، لكنّي لم أقل، كنت أريد أن أقول عن الانتفاضة، لقد انهزمنا وهذا صحيح، لكن القضيّة مستمرة، ولكن ذلك الحجر أغلق فمي.

نصري دفع ومضى، وأنا خجلت لأنّ صديقي الكاتب لم يمد يده إلى جيبه.

شعرت بالدوار بين أكوام الصحون الفارغة، لكنّي لم أكن سكران، لم أشرب سوى ثلاث كؤوس عرق، لكنّه الانفعال. نظرت إلى ساعتي، وقلت إنّ جوزف لن يأتي.

«ما رأيك بفنجان قهوة»، قال جورج.

قلت «عظيم»، ورفعت يدي كي أطلب فنجانَيْ قهوة، فامتدَّت يد جورج إلى يدي وأنزلتها.

«لا مش هون، نذهب إلى مقهى».

جلست إلى جانبه في سيارته «الرينو» الحمراء وسار بي

في طرقات لا أعرفها. هكذا تسنّى لي أخيرًا التعرُّف إلى الأشرفية، الحي المسيحي في بيروت الشرقية، الذي يسمُّونه أيضًا الجبل الصغير، وأدار مسجل سيارته على أغنية فيروز «القدس العتيقة».

«نحن أعداء»، قلت لجورج.

«حطّ بالخرج»، جاوبني، «كله تفنيص».

ودخلنا شارعًا جميلاً، هكذا تخيّلت شوارع حيفا. روت لي جدّتي عن مدينة البحر، حيث الشوارع مظللة بالأشجار والياسمين، ورائحة الفتنة.

«نحن في حيّ السراسقة»، قال. «هذا حي الأغنياء، كانوا مجرَّد مترجمين عند القناصل الأجانب خلال العهد العثماني، وانظر إلى قصورهم».

قال إنَّه يحلم ببيت هنا.

قال إنَّه خلال مرض والده العجوز الذي مات الآن، كان يأتي مع أبيه يوميًا إلى هذا الشارع ويتمشّيان.

قال إنّ والده كان يحب أن يمشي هنا، «أريد أن أموت وآخذ معي هذه الألوان إلى القبر». ثم أخبرني حكاية غريبة عن المرأة التي أحبَّها والده قبل أن يتزوَّج أمه. تحدَّث عن امرأة كهلة محدودبة الظهر تسكن قرب المقبرة. «كانت أكبر من أبي بأكثر من عشر سنوات، وتشتغل خيّاطة وتصرف عليه. كانت مقطوعة من شجرة، شقيقها الوحيد مات بالحمى شابًا، وأبي لم يتزوجها. أجبره أهله على الزواج من ابنة خالته التي صارت أمي. والغريب أنَّها [الخيّاطة] شجعته على الزواج. بقي يحبها حتى عندما هرمتْ واحدودب ظهرها، لكنَّه صار يرسلني إليها، لأنَّه لم يعد يجرؤ على رؤيتها في شيخوختها البائسة. امرأة محدودبة الظهر، تلبس ثيابًا سوداء، وتمشي كأنَّها تزحف. كأنَّها صارت سلحفاة. كنت أخاف منها، أضع الكيس المليء بالطعام على مدخل بيتها، أقرع الباب وأركض هاربًا. وهي تصرخ لي بالدخول، وأنا أخاف من بيت السلحفاة الذي نبت على ظهرها».

أوقف سيارته في الشارع، والتفت إليّ، «وأنت»؟ سألني.

«أنا ماذا»؟

«ماذا عن أبيك»؟

«أبي مات من زمان، وأنا لا أعرفه».

قبل أن نصل إلى المقهى، أشار إلى مقبرة مار متر. رأيت ما يشبه القصور الرخامية التي تنتصب فوقها الملائكة والتماثيل والحمام الذي يكاد أن يطير.

«هنا مقابرهم»، قال.

«مقابر من»؟ سألت.

«مقابر أصحاب القصور التي رأيناها في الشارع».

«هذه مقابر»!

«نعم يا سيدي، يعيشون في القصور، ويُدفنون في القصور، هذه حال الدنيا».

جلسنا في مقهى «واكيمز»، قرب ساحة ساسين في الأشرفية، التي صار اسمها «ميدان شهداء الكتائب»، والتي يتوسطها نصب تذكاري لضحايا انفجار بيت الكتائب، يوم عيد الصليب، في ١٤ أيلول ١٩٨٢، حيث قضى رئيس الجمهورية المنتخب بشير الجميل. في أسفل النصب، صورة كبيرة لبشير مظللة بالخيوط الرمادية. كان اغتيال بشير الجميل قبل أيام قليلة من تسلُّمه منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية، المبرِّرَ المعلن لمذبحة شاتيلا، إذ قيل إنّ رجاله الذين أعماهم الحزن على زعيمهم، ارتكبوا المذبحة بالتنسيق مع الجيش الإسرائيلي.

قال الكاتب، مشيرًا إلى النصب، إنّ المذبحة كانت ردة فعل انتقامية، وإنّه كان يتمنى لو أتى الريّس جوزف، كي أسمع منه وقائعها.

قلت إنَّني أعرف ماذا جرى، ولا حاجة بي إلى جوزف، لأنَّني كنت هناك.

«أنت لا تعرف شيئًا»، قال. وروى لي ما كان من المفترض بجوزف أن يرويه. استمعتُ إلى الحكاية، والبرد يتسلَّل إلى عظامي، كأنَّ الكلمات كانت قطعًا من الثلج تتساقط على عمودي الفقري.

ماذا أراد من حكايته؟

فهمتُ منه أنَّه متعاطف معنا، ويريد بناء نصب تذكاري للضحايا، ثم يأتي بي إلى هذا المقهى، ويتكلَّم كأنَّه جوزف!

حين أتذكره الآن، يا سيدي، لا أراه إلا على صورة جوزف. الرجل اختفى بعد هذا المشوار إلى الأشرفية، أوصلني بسيارته إلى مدخل المخيم، ووعدني بأنَّه سيعود مع مخطط الحديقة التذكارية، ولم يعد. الحرب اشتعلت من جديد، وبدأ الحصار الطويل الذي دمّر المخيم والمقبرة وذكريات المذبحة. فالمذابح لا تُنسى إلا بمذابح أكبر منها، مثل كل المصائب، ونحن شعب قرَّر أن ينسى من كثرة ما تراكمت عليه النكبات. مذابح تمحو مذابح، ولا يبقى في الذاكرة سوى رائحة الدم.

الكاتب اختفى، ولم يتَّصل بي من جديد. تلفنتُ له عدّة مرات إلى الجريدة حيث يعمل، لكنَّني لم أجده. عاملة السنترال كانت تقول إنَّه غير موجود، مع أنَّني كنت متأكدًا أنَّه هناك. لم أكن أريد منه شيئًا، كنت أريده أن ينشر أخبارنا فقط. ففي تلك الأيام يا سيدي، عشت الصحراوين: صحرائي الصغرى كانت الحصار، وصحرائي الكبرى كانت «شمس».

خرجتُ من المخيم من أجل المضادات الحيويَّة، وعلقت في مار الياس، ولم أعد أستطيع العودة إلى شاتيلا. وفي مار الياس، التقيت «شمس»، وضربني الغرام، ثم اختفت. دخلت المخيم المحاصر واختفت. يومها يا سيدي، حين أتذكَّر ذلك اليوم، أخجل من نفسي، ولكنِّي لم أكن مهتمًا بمصير المخيم، كنت أركض خلف ظل تلك المرأة، شيء ما في داخلي، كان أقوى مني. شيء ما أنساني كل شيء، وسمّرني على صليب